Oriental reading of the Quranic text

Noor Safaa Abd Alwahad
noor.safaa@cois.uobaghdad.edu.iq
Prof. Muhammad Fadal Abbas
mohammad@coart.uobaghdad.edu.iq
University of Baghdad - College of Arts

DOI: https://doi.org/10.31973/66vc4v45

Abstract:

The orientalists' reading of the Glorious Qur'an is one of the issues that Muhammad Arkoun was concerned with, and it is part of his project to criticize the orientalist reading in general for the Islamic heritage. It is one of the main subjects that Muhammad Arkoun gave priority among his projects in applied Islamic Studies .Furthermore, it is part of his critical project of Orientalism, the issues dealt with by Orientalism, and then the transfer of the Islamic heritage to the Western reader, by considering the analysis, explanation and criticism of Arkoun's propositions, in order to understand some Orientalists of the Glorious Qur'an.

Keywords: Islamic heritage, orientalism, sacred text.

البحث الاستشراقي للنص القرآني

الباحثة نور صفاء عبد الواحد
جامعة بغداد– كلية الآداب

أ.د. محمد فاضل عباس
جامعة بغداد– كلية الآداب

(مُلَخَّصُ البَحث)

تُعدُّ قراءة المستشرقين للقرآن الكريم من القضايا التي اهتمَّ بها محمد أركون وهي جزء من مشروعه في نقد القراءة الاستشراقية عامة للتراث الإسلامي، لا بل إنها من الموضوعات الرئيسة التي تقف في صدارة مشروع محمد أركون في الإسلاميات التطبيقية، وهي جزء من مشروعه النقدي للاستشراق، من أجل القضايا التي تناولها الاستشراق، ثم نقل التراث الإسلامي للقارئ الغربي، وذلك عبر الوقوف على تحليل طروحات أركون وشرحها ونقدها، من أجل فهم بعض المستشرقين للقرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، التراث الإسلامي، النص المقدس.

مقدمة:

تُعدُّ قراءة المستشرقين للقرآن الكريم من القضايا التي اهتمَّ بها محمد أركون وهي جزء من مشروعه في نقد القراءة الاستشراقية عامة للتراث الإسلامي، لا بل إنها من الموضوعات الرئيسة التي تقف في صدارة مشروع محمد أركون في الإسلاميات التطبيقية، وهي جزء من مشروعه النقدي للاستشراق، من أجل القضايا التي تناولها الاستشراق، ثم نقل التراث الإسلامي للقارئ الغربي، وذلك عبر الوقوف على تحليل طروحات أركون وشرحها ونقدها، من أجل فهم بعض المستشرقين للقرآن الكريم.

البحث الاستشراقي والنص القرآني:

اهتمَّ المستشرقون بالتراث العربي الإسلامي في دراستهم العلمية التي تنوعت بتنوع القراءات والتحليلات، وقد نال (القرآن الكريم) جلَّ اهتمام المستشرقين في دراستهم لهذا التراث، و تباينت المواقف بحسب القناعات والأفكار، متأثرين بإستراتيجية القراءة التاريخية والألسنية اللغوية، من أجل تكوين قراءة موضوعية تتوافق والنص القرآني، وبدأت اهتماماتهم بترجمة القرآن إلى اللغات الأُخرى والتصنيف والبحث وجمع الوثائق المختلفة التي تخص القرآن، كما اهتمَّ المستشرقون بدراسة علوم القرآن والتفسير كونها علوماً خادمة للقرآن وتعينهم على فهم وإدراك مقاصده وأغراضه، من أجل فهم بعض قضاياه وإيحاءاته واستيعابها(عزوزي،٢٠٠٧، ص٩).

أولاً. المستشرقون وترجمة القرآن:

إنَّ الترجمة وسيلة لنقل ثقافات وحضارات أمم العالم وعاداتها وتقاليدها، وعلى الرغم من أهميتها في إثراء اللغات وتطويرها، إلاّ أنها في غاية الدقة والحساسية، إذ تحتاج تدريباً وممارسة للتمكن من إجادتها، والترجمة تنقسم إلى: الترجمة الحرفية ،والترجمة التفسيرية أو المعنوية، والحرفية تحافظ على جميع المعاني الأصلية، أما التفسيرية فتحاول شرح الكلام لكي توضح معناه أي لتحافظ على معانيه، كما تتطلب الترجمة " معرفة كافية بمعجم اللغة المصدر، ومعجم اللغة الهدف، وبقواعد اللغتين النحوية"(ملكية،٢٠١٢، ص ٤٠). ولا تتوقف عند حدود المفردات المعجمية ولا عند تطبيق القواعد النحوية، وإنما يجب أن تتعداه إلى مراعاة الموضوعات الثقافية والاعتقادات الدينية والتصورات المختلفة، فالترجمة أحياناً تكون أصعب من التأليف؛ لأنها تتطلب الدقة والأمانة في نقل المعنى من دون نقصان أو زيادة أو تشويه(مليكة، ٢٠١٢، ص٤٠).

أهتمَّ المستشرقون بترجمة القرآن الكريم إلى أغلب اللغات الأوروبية، لكن بعض الترجمات الاستشراقية رسَّخت مفاهيم خاطئة عن القرآن الكريم ؛لأنه بحسب أركون "من الصعب ترجمة مفردات القرآن وصياغته إلى لغاتنا الحديثة المُعَلمنة: أي المنزوع عنها

غلاف التقديس (كاللغة الفرنسية مثلاً)، فهذه اللغات أصبحت مقطوعة عن أنظمة الدلالات المحيطة بالخطاب الديني في اللغات السامية كالعربية والعبرية"(اركون٢٠١٢،ص٨٤)، إذ تُعدُّ ترجمة أندريه دورييه أول ترجمة كاملة للنص، وقد نشرت بالفرنسية سنة (١٦٤٧م)، وحازت شهرة كبيرة على الرغم من كل ما فيها من المشاكل، هذا ما تظهره الطبعات والنسخ الجديدة، وبعدها توالت الطبعات الجديدة، وظهرت ترجمات بالفرنسية والألمانية الكامل منها والجزئي، وبعض الترجمات كانت شرحا (بلاشير،١٩٧٤، ص١٨،١٧) .

إذ حقَّقت عملاً مهماً لمعرفة القرآن والظروف التي عايشت الوحي، عبر تضافر جهود كل من فقهاء اللغة ومؤرخي الأديان وعلماء الاجتماع، الذين أسهموا بالتحليل الدقيق للعناصر المختلفة التي تميز بها الإسلام المقدس، وكان لـ نولدكه ومدرسته الفضل في التعريف (بالقرآن الكريم) وفهمه (بلاشير،١٩٧٤، ص ٢٠).

ويعترف أركون بأنه على الرغم من الترجمات المتنوعة كلها التي حظي بها القرآن إلاّ أنه ظلَّ مجهولاً أو غير معروف على حقيقته حتى الآن، ولاسيّما عند الجمهور الفرنسي، إذ يحمل هذا الجمهور أفكاراً متنوعة وأحكاماً سلبية مسبقة وعنيفة جداً، ويسوّغ موقفهم بالقول: " ولكي نعذرهم إلى حد ما، ينبغي الاعتراف بأن (كتاب الله) عسير على الفهم و يستعصي حتى على أفضل الشرّاح والمفسرين، وهذا الحكم يصير أكثر صحة بالنسبة إلى القارئ غير المسلم؛ لأنه لا يمتلك الانفعال الديني الحماسي ولا ذلك التعلق العاطفي القداسي "(اركون،٢٠١٧، ص٧٨). فترجمة معاني (القرآن) ليست سهلة وإنما هي عملية معقدة تحتاج إلى الفهم الصحيح لمعاني القرآن ومقاصده وتحتاج أمانة علمية؛ لأنَّ أي تحريف أو خلط للكلمات يؤدي إلى تناقضات كبيرة وفهم خاطئ تؤثر على مقاصده.

ثانياً. المستشرقون والآيات القرآنية:

إنَّ أهم المسائل التي ركَّز عليها المستشرقون في دراستهم للقرآن هي: التسلسل الزمني للسور والآيات، وترتيب وتنظيم مجموع عبارات ونصوص الوحي بعد موت النبي، وانشغل الفقهاء بالمشكلة الأولى وهي: تحديد ترتيب زمني دقيق للآيات القرآنية؛ لأنهم يعتمدون في أحكامهم الشرعية الآيات القرآنية، فينبغي عليهم أن يعرفوا ما الآية السابقة واللاحقة لكي يعرفوا ما الناسخ وما المنسوخ، لكنهم لا يتبنون وجهة النظر التاريخية فيما يتعلق بالقرآن، ولا يعترفون بتاريخيته كونه نصا لغويا)اركون،٢٠١٧، ص٧٨(، ولاسيّما أن الأرثوذكسية الإسلامية تفرض القيود والضغوطات على الفكر العربي الإسلامي بأن الدراسات القرآنية محرّمة، إذ يقول أركون: "إنَّ الأرثوذكسية الإسلامية تضغط دائماً بالمحرّمات، على الدراسات القرآنية وتمنع الاقتراب منها أكثر مما يجب (اركون، ١٩٩٩، ص١٤٤) .

أي أنها ترفض الدراسة العلمية وتعُدّها انتهاكاً للقدسية، ومن ثمَّ فأية دراسة للقرآن تُعدُّ (كفراً)، وبحسب أركون يرجح رفض الأرثوذكسية الأصولية للدراسة العلمية حتى لم يتم الكشف عن تاريخية النص وربطه في ظروف عصره الذي ظهر فيه، فالأرثوذكسية أو الدوغمائية الإسلامية رفضت الدراسة العلمية للقرآن، لكن المستشرقين هم من توجهوا إلى دراسة النصوص الإسلامية دراسة علمية نقدية مطبقين المنهج التاريخي، إذ يقول أركون حول القيود المفروضة على العقل الإسلامي بأنها قد سهلت "على المستشرقين في المرحلة التاريخية والفيلولوجية أن ينتهكوا هذه المحرّمات أكثر مما يسهل علينا اليوم؛ لأنَّ العقل العلمي كان آنذاك في أوج انتصاره، وكان مدعوماً من قبل الهيمنة الاستعمارية التي رافقته"(اركون، ١٩٩٩، ص ٤٤) .

إذ قدَّم المستشرقون قراءة نقدية عن النص القرآني، عبر تقديم الطبعة النقدية حول ترتيب القرآن، وكان على رأس هؤلاء المستشرق الألماني نولدكه الذي جهد من أجل أن يتوصل إلى التسلسل التاريخي الحقيقي للآيات والسور، ولاحظ " إنَّ آيات بعض السور محشورة في سور أُخرى فحاول إعادتها إلى سياقها الأصلي، وكل هذه العمل الفيلولوجي (أو اللغوي) ما كان ممكناً لولا التقدم الذي حققته المنهجية الفيلولوجية الألمانية في القرن التاسع عشر (اركون،١٩٩٩، ص٤٥).

فالبحث الاستشراقي يهتم بالدراسات التاريخية للقرآن وينشغل بمسألة السياق اللغوي والتاريخي للآيات، لكن المسلمين رفضوا مساهمات المستشرقين على أساس أنها تهدم الإسلام وتفككه ولم يركزوا على المساهمات الأكثر تثقيفاً وفائدة للمستشرقين، منها ما قدّمه نولدكه، إذ يقول أركون: "كانت لنولدكه الميزة الكبرى في أنه أدخل للمرة الأولى منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي السؤال الذي لا مفرَّ منه والخاص بالتاريخ النقدي للنص القرآني فعل ذلك في مؤلفه الضخم الذي طبع ونقح من قبل ف. شوالي وج. براجستراسيروس بريتزل، لم يلقَ هذا الكتاب حتى الآن مترجماً ينقله إلى العربية بما يعطي فكرة عن المجال المستحيل التفكير فيه والمفروض من قبل العقل الأرثوذكسي" (ركون،١٩٩٦،ص ٢٦٤).

نتساءل هنا إذا كان هذا المؤلَّف مهماً بالنسبة لأركون فلماذا لم ينقله إلى العربية؟ ولاسيّما أنه يرى بأنَّ العقل الأرثوذكسي هو المسيطر على الساحة العربية ،إذ له نفوذ سياسي بحيث يتمكن هذا العقل الأرثوذكسي أن يحوّل الحقائق الجدلية والظرفية إلى حقائق متعالية ومقدسة وذلك بإثارة الأحاديث واستحضارها بما يلائم الحاجيات المعاصرة، وهذا العمل الذي ينجزه في كل مرة نخبة من الفقهاء الذين يستندون إلى نصوص مقدَّسة مما أدّى " إلى تحديد وتثبيت منطقة الممكن فيه بالنسبة إلى الحركات والجماعات التي تنسب إلى القرآن"(أركون،١٩٩٦، ص٢٦٥)، إذ حاول ج. بيراتون أن يوضّح تلاعب الفقهاء

بالأحاديث وتوجيهها بما يخدم مصالحهم ،إذ يستطيعون أن يشوشوا الحقيقة التاريخية، فمن الضروري استعادة "أدبيات أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والأحاديث التي استشهد بها دعماً للتفاسير المختلفة من أجل أن ندرسها من جديد ونعيد كتابة التاريخ الحقيقي للنص القرآني" (أركون،١٩٩٦، ص ٢٦٥).

يركز أركون على المشاكل التي تم استبعادها والحدود التي رسموها، يريد أن يتخطاها من أجل إغناء تاريخ الفكر وتنشيطه، وذلك بالتركيز على (اللامفكر فيه)، فالمسألة لا تتعلق فقط بالترتيب الزمني للنزول ومسألة تفسير الآيات المنقولة في المصحف الرسمي (القرآن)، فلا بُدَّ من استعمال معايير شكلية (من نظم وبنية نحوية ومفردات) ومعايير موضوعية وتاريخية من أجل الكشف عن وحدات نصية أُخرى داخل السور المركبة، ولاسيّما أن التفسير والتنقيب الإسلامي ينزع الصفة التاريخية عن كيفية تشكل المصحف وبهذا تطمس المشاكل المتعلقة بذلك، فضلاً عن ما يضيفونه من صفة التعالي والتقديس على مضمون النص، إذ لا يمكن أن يتعرض هذا النص إلى نقاشات تحليلية علمية، وتركيز المستشرقين واهتمامهم بالمعطيات الإيجابية الواقعية لتاريخ القرآن بعد عام ٦٣٢م، فضلاً عن انشغالهم بمسألة السياق اللغوي والتاريخي للآيات(أركون،١٩٩٦،ص ٢٦٤).

فالمنهجية الاستشراقية تهتم بالمعطيات والسياق اللغوي والتاريخي أما التفسير الإسلامي فينزع الصفة التاريخية وهذا تعارض حاد ولا يمكن إقامة جسر بينهما، لكن التنقيب الاستشراقي قادر على فتح الرهانات المعرفية التي تقدم تحليلات وإن كانت غير مكتملة فيما يخص مشاكل التراث الإسلامي عموماً، فما قدّمه بعض المستشرقين من جهد وبحث مهم لا يمكن تجاهله ولاسيّما أن الرهانات التي تثار عديدة ومتنوعة فيها (الرهانات لغوية وتاريخية وأنثروبولوجية وتيولوجية وفلسفية) وهذه الرهانات لم يعرها أهمية الباحثون المنشغلون بـ (تجميع الوقائع) فقط، ويقول أركون: " وهذا ما يمكننا البرهنة عليه عن طريق الآية ١٢ من سورة النساء، والآية ١٧٦ من سورة النساء أيضاً، كانت الآيتان قد حظيتا بدراسة ممتعة... سوف أؤكد على الأهمية الاستكشافية لكل دراسة تحليلية توازن بين القصص والحكايات التي أوردها الطبري في تفسيره خصوصاً، أقول توازن بينهما وتقارب بعضها من بعض الآخر لاستخراج الحقيقة عن طريق المقارنة "(أركون،١٩٩٦، ص ٢٦٦).

ويرى أركون أن الآيتين المذكورتين حول مسألة (الميراث أو الفرائض) قد أحدثت انقساماً بين المفسرين، كونهما تطرحان عددا من الرهانات التي تتجاوز المنهجية الاستشراقية، لما تحمله من معانٍ ودلالات فتفتح آفاقاً جديدة في قراءة النصوص الدينية، منها المسألة المطروحة وهي مسألة لغوية ومعنوية، ترتبط بمسألة نحوية – تركيبية، فالتفسير الإسلامي التقليدي لم يستطع أن يحلها والصعوبة تكمنُ في كلمة (كلالة) التي لم يتوصل

أحد إلى معرفة معناها؛ لأنها كلمة غريبة، فضلاً عمَّا جاء قبلها فعل بصيغة مبني للمجهول، وهذا ما حيّر المفسرين وأزعجهم، أما الطبري فقدّم قراءة مختلفة عن الأولى، التي ركزت على الفعل المبني للمجهول ؛لأننا لا نعلم ما إذا كان قد ترك إرثاً من خلال وصية أم أنه لم يترك وصية، في حين الطبري يركِّز على الفعل (يورث) الذي جاء بصيغة المبني للمعلوم، و الأمر يكون مختلفاً وهذا يعني أن المحتضر قد ترك وصية وحدد ورثته، وهنا يبين د.س. باور بحسب أركون كيف يقوي الطبري القراءة " الأرثوذكسية "

ويدعمها(أركون،١٩٩٦، ص٢٦٦). هذا فيما يخص الرهان اللغوي، أما الرهان التاريخي فلا يقل أهمية عن اللغوي، وينبغي أن نوجه هذا السؤال بحسب أركون: " كيف وضمن أي وسط اجتماعي راحت القراءة المقبولة تتغلب على يورث ويوصي اللتين هما من ضمن المتغيرات والحلول الممكنة؟ تتخذ هذه المسألة أهمية قصوى بسبب أنها تخص قضية الميراث وانتقاله إلى خارج النسل الذكوري، لقد كانت القراءة المرفوضة تتيح للميراث أن ينتقل إلى نسل النساء وخصوصاً إذا ما أعطينا كلمة (كلالة) معنى الكنة أو الخطيبة" (أركون،١٩٩٦،ص٢٦٦).

وفي هذا الاختلاف في التوزيع الصحيح والقراءات الملتبسة والكلمة الغريبة غير واضحة المعنى وهي كلالة، فتفسير هذه الآية مختلف وغامض؛ لذا يجد أركون أنه من الضروري الرجوع إلى نظام الميراث الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية في زمن النبي ويقارنه بالأنظمة السائدة في الأوساط العراقية والسورية من القرن الأول الهجري، عندها يمكن أن نعرف فيما إذا كان المشرّعون الأوائل قد قدّموا تفسيراً وقراءة واضحة للآية فيما يتوافق مع معناها، لكنهم فسّروا الآيات بما يتوافق مع النظام الأبوي السائد قبل الإسلام بطريقة تحافظ على ما هو سائد وموجود لكي لا يحدث انقلاباً في المجتمع، لذلك قرأت الآية وفسّرت بما يحفظ الانسجام في المجتمع (أركون،١٩٩٦، ص٢٦٦) .

فالرهان التاريخي على الرغم من أهميته، إلاّ أنه طمس في التفسيرات المؤدلجة التي تحافظ على تماسك المجتمع القبلي، وهذه إحدى الدوغمائيات السائدة في تفسيرات المفسَّرين التي اعتمدها بعض المستشرقين.

أما الرهان التيولوجي أو الثيولوجي فهناك مناقشات خطيرة متعلقة بـ (خلق القرآن) والتي همشتها وطمسته السياجات الدوغمائية أو ما يسميها أركون بالأرثوذوكسيات التي حاربت القراءات العقلانية لقضايا فكرية مهمة، فضلاً عن تأويلها لـ كلام الله بقراءة منحرفة ومؤدلجة مناقضة ومخالفة للقصد الأولي الذي جاءت فيه (أركون،١٩٩٦، ص٢٦٧) .

يريد أركون الجمع بين الرهان اللغوي والتاريخي و التيولوجي والفلسفي، فهو يريد أن يكمل النقص الموجود عند الفقهاء وفي المنهجية الاستشراقية، من أجل الكشف عن التصورات وعمليات تحريف الواقع كلها، مبتعداً عن المناقشات الشكلية الأكاديمية غير العلمية، مثلاً ما قدّمه أ.ت. ويلش في مقالته التي تهمل توضيح أن المنهج الفيلولوجي منهجاً مهماً كمرحلة أولى، يمكن أن يكون نقطة استناد وواسطة من أجل التوصل إلى أُفق منفتح ونقدي تحليلي وليس كما يظن ويلش مرحلة أولى نهائية أي يعتمد المنهجية الاستشراقية التقليدية فقط، وإنما بحسب أركون بأنَّ المنهجية الفيلولوجية مهمة لكنها كمرحلة أولى تفتح لنا آفاقاً علمية ومعرفية مهمة ولا يمكن أن نعتمدها مرحلة أولى وأخيرة، وإنما تكون مرحلة انطلاق(أركون،١٩٩٦، ص٢٦٧). نحن أكدنا في فقرات سابقة أن أركون يرى أن المشاكل في فهم التراث الإسلامي جاءت من:

- القائمين على تفسير هذا التراث ويسميهم بالإسلاميات الكلاسيكية (الأصوليون الأرثوذكسيون).
- الاستشراق التقليدي: وهنا يريد أركون أن يوضح ذلك، لكنها ليست واضحة بالقدر الكافي بالنسبة لي على أقل تقدير.

فما يريده أركون هو أن يدرس (الظاهرة القرآنية) دراسة علمية ونقدية، فالتسلسل الزمني للآيات القرآنية "يتيح لنا أن نتعرف بشكل تاريخي دقيق على تلك المجادلة المتكررة ضد المعارضين العديدين، وعلى المواقع الاجتماعية والسياسية للفئات الاجتماعية الموجودة في الساحة" (مصطفى،٢٠١١، ص٣٤٠).

فالبحث الاستشراقي قدّم خدمات للفكر العربي الإسلامي عجز عن تقديمها الفكر الإسلامي نفسه، حتى أن أركون " يساير المستشرقين في إعادة ترتيبهم للسور القرآنية ترتيباً يختلف عن الترتيب السائد في المصحف والذي يبدأ بسورة (الفاتحة) وينتهي عند سورة (الناس) بمجموع (١١٤) سورة، ومن بين الأمثلة على ذلك سورة (الحجرات) ،إذ يقول بشأنها: لكن يبدو أن سورة الحجرات المرتبة برقم (٤٩) في القرآن تمثل في الواقع المرتبة رقم (١١٤)، هذا ما كشفه المؤرخون الفيلولوجيون المحدثون الذين قاموا بترتيب زمني حقيقي لسور القرآن وآياته، ومن ثم فإن هذه السورة تحيلنا إلى آخر فترة من فترات القرآن " (مصطفى،٢٠١١، ص٣٤٠) .

ويوضع الاستشراق سورة الفاتحة تحت رقم (٤٦)، على حسب الظروف التي لفظت منها السورة بشكل شفهي لأول مرة، وكل ما يستطيع قوله أركون هو " إنَّ هذا النص القصير الموضوع في رأس المدونة القرآنية يحتل في الترتيب الكرنولوجي الرقم ٤٦... ونقرأ الفاتحة من خلال السياق الممتد من السورة رقم (١) إلى السورة (٤٦)، ولكن بشرط أن يكون هذا

الترتيب التاريخي لسور القرآن صحيحاً بشكل قاطع، بشرط ألاّ تكون السور غائبة عن مدونة ابن مسعود ومدونة ابن عباس"(أركون، ٢٠٠٠، ص١١٨).

فالبحث الاستشراقي يتضامن مع منهجية العلم الإسلامي، في اعتماده المصادر القديمة وما دوّنه منها، إذ يقول أركون : "إنَّ التنقيب الاستشراقي يكتفي فقط بتاريخية الوقائع وتسجيلها فإنه يدمّر تراثاً حياً متشابكاً ويغذي الشك والريبة ويثير المحاكاة بسبب طبيعة منهجه في استغلال المصادر القديمة، وبالمقابل فإنَّ المسلمين الذين يستخدمون المنهج ذاته يلعبون لعبة سهلة، إذ يطلبون من المستشرقين إيجاد شهادات مكتوبة من التراث تؤيد أفكارهم، لكننا نعرف أن هذه الشهادات كانت قد دمرت وحذفت من قبل الصراع الحامي للمؤمنين أو من قبل السلطة السياسية في الماضي" (أركون، ٢٠٠٠، ص ١٢١).

فالنصوص المعتمدة عند القراءة التفسيرية لم تخضع للدراسة النقدية الدقيقة والعلمية التي تسهم في روح البحث وتحفز التقدم في المعرفة الإنسانية، إذ يعتقد أركون " أنَّ القرآن، مثله في ذلك مثل التوراة والأناجيل، عبارة عن نصوص ينبغي أن تقرأ من خلال روح البحث والتساؤل، لأنها يمكن أن تحبذ حصول التقدم الحاسم فيما يخص معرفة الإنسان" (أركون،٢٠٠٠، ص١٢٣).

فما يريده أركون من قراءته التحليلية النقدية أن يعوض نقص المنهجية الاستشراقية والتفاسير الإسلامية، هدفه هو الارتقاء بالمعرفة الإنسانية متجاوزاً السياجات الدوغمائية المغلقة كلها على نفسها والانفتاح على خطاب علمي مؤقت ومتغير، إذ يرفض التوقف عند الثوابت، إذا تعامل مع النص القرآني بوصفه جزءاً من التراث الذي لا بُدَّ من إعادة قراءته بطريقة علمية تحليلية نقدية، وإعادة كتابة تاريخه على وفق مشروعه الإسلاميات التطبيقية.

ثالثاً. فهم أركون للنص المقدس (القرآن):

يدعي أركون وجود فرق في فهم القرآن أي فرق بين النص المقروء والنص المكتوب، وحتى يتحقق الفهم الصحيح يلزم قراءته على أنه نص تاريخي، وذلك بدراسة الظروف التاريخية المحيطة به في كل عصر (عبدالله،٢٠١٢، ص٦١).

إذ يقول: " يمكننا الآن أن نعود إلى المدونة النصية التأسيسية التي ولدت كل المدونات الأُخرى، بصفته مجموعة من العبارات الشفهية... والتسجيل الكتابي لعدد غير محدد من الآيات في زمن النبي لا يغير في الأمر شيئاً... فالنبي تلفظ بالقرآن أولاً شفهياً أمام الصحابة قبل أن يسجل ما قاله كتابة" (أركون،١٩٩٩، ص ١٣٤).

يركِّز أركون على عملية التأصيل كونها حقيقة ما، في الخطاب القرآني الذي كان محاطاً بظروف متداخلة ومتشابكة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وأخلاقياً، أثرت في تشكيل الهيبة القدسية، ولاسيّما أن الانتقال من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية ونشر

مخطوطة المصحف باليد أولاً ثم طباعة الكتاب ثانياً أسهمت في صعود طبقة رجال الدين الذين ازدادت أهميتهم على مستوى السلطة الفكرية والسياسية، التي تتناقض مع الظروف الاجتماعية والثقافية التي رافقت انبثاق الخطاب القرآني(أركون،١٩٩٩، ص٢٩).

قصور العلم الاستشراقي: (١) ظلَّ العلم الاستشراقي محصوراً بتاريخ الوقائع الخام للتراث، أي محصور بسرد الوقائع من دون أي تحليل أو مراجعة ونقد، (٢) جهله ببنية شبكة العلاقات بين الضمائر أو الأشخاص المتكلمين، لعدم فهمه الجيد لمفهوم ظرف الخطاب؛ لذلك اتجه أركون للقرآن وسمّاه بـ (الخطاب النبوي) ؛لأنه يقيم فضاءً من التواصل ما بين ثلاث قواعد لغوية وهي (الضمير المتكلم، والناقل، والضمير المخاطب الثاني)، فالضمير المخاطب الأول هو (النبي) والضمير المخاطب الثاني الذي وجّه إليه الخطاب هو (الناس)(أركون،١٩٩٩، ص ٣٠).

فأركون يحلل النص القرآني تحليلاً لغوياً من أجل الكشف عن تركيبته الداخلية، وبعدها يحاول أن ينتقل إلى دراسة الظروف الاجتماعية والتاريخية المحيطة بالنص، التي أثقلت النص وأغلقته بسياجاتها الدوغمائية المتمثلة بحسب أركون بـ "مفهوم القوى المهيمنة القوى المهمشة الذي يشتمل على التفاعل بين الحالة الشفهية/ الحالة الكتابية، بين المعرفة ذات البنية الأسطورية/ والمعرفة التاريخية النقدية، ثم العصبيات الشغالة والكائنة بين تشكيل الدولة المركزية، ثم الكتابة والثقافة الفصحى، ثم رجال الدين الذين ينتجونها ويسيّرون أمورها، ثم الأرثوذكسية الدينية الرسمية" (أركون،١٩٩٩، ٣١) .

وهذه الأشياء تمثل القوى الاجتماعية والتاريخية الفاعلة والمؤثرة في الوضع الاجتماعي العام في مكة والمدينة في زمن انبثاق الظاهرة القرآنية(أركون،١٩٩٩، ص ٣١).

فأركون يحاول أن يفكك ويحلّل الخطاب القرآني من أجل إزالة الالتباس والتناقض ما بين (المقدس والنبي والناس) والظروف المختلفة التي واكبت الآيات القرآنية، وإذا اعتبرنا أن القرآن خطاباً أو كلاماً شفهياً لن نقع في التناقض؛ لأنه كلام شفهي قيل في ظروف مختلفة، وما يتراءى لنا بوجود تناقض في النصوص، فإنه يعود إلى اختلاف الظروف التي قيلت فيها الآيات، لكنها ليست متناقضة، في حين يتحقق التناقض إذا ما اعتبرنا أن القرآن نص مكتوب، فالنص يعني أن شخصاً قد كتب كتاباً في بدايته حتى نهايته(أركون،١٩٩٩، ص ٣٢،٣٣). إذ يقول أركون: "إنَّ موضوع البحث هو عبارة عن مجموعة من العبارات الشفهية في البداية، ولكنها دوّنت كتابة ضمن ظروف تاريخية لم توضح حتى الآن أو لم يكشف عنها النقاب، ثم رفعت هذه المدونة إلى مستوى الكتاب المقدس بواسطة العمل الجبار والمتواصل لأجيال من الفاعلين التاريخيين، واعتبر هذا الكتاب بمثابة الحافظ للكلام المتعالي

لله والذي يشكل المرجعية المطلقة والإجبارية التي ينبغي أن تتقيد بها كل أعمال المؤمنين وتصرفاتهم وأفكارهم" (أركون،١٩٩٩، ص ٤١) .

أي أن النص كان متحركاً ضمن ظروف تاريخية واكبته، وتم تجميده بإضفاء الشرعية وإغلاقه ضمن مدونة مقدسة، واحتكار التفسير لدى سلطة معينة تمتلك (الحقيقة المطلقة)، فالسلطة تدعم نفسها ومركزها عبر استعانتها بالنص وتفسيره مما يتناسب ووجودها، يحاول أركون تفكيك هذه العلاقة ليحرر النص ويثبت زيف التفسير المهيمن، والتخلص من كل تفكير متجمد، ويتيح إمكانية توظيف الخطابات حول النصوص الدينية بشكل منفتح، لتصبح الحياة الدينية للبشرية نقدية تعددية وديناميكية (مجموعة مؤلفين،٢٠١٩، ص٢١٥).

يعلن أركون أن القرآن الكريم الذي يمثل الكتاب المقدس هو أكثر أصالة وموثوقية في خطابه الشفوي إذا عده منفتحاً على جميع المعاني في شكله الشفوي، وانغلق عندما أصبح مدونة رسمية، إذ يقدّم رواية مختلفة عن تاريخ القرآن، ويقسمه على مدتين: " فترة الوحي أو الفترة التكوينية وفترة الجمع والتثبيت، وقد غطت الفترة التكوينية الوحي المكي والمدني عندما كان القرآن يتم تعميمه شفوياً بين الصحابة، أما فترة التثبيت والتدوين فتمتد من زمن وفاة النبي وحتى القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي، ومرفقاً لأركون فإن التكوين النهائي للقرآن لم يتم إنجازه قبل القرن الرابع عشر "(مجموعة مؤلفين،٢٠١٩، ص٢٦٦)، أي أن أركون يميز بين الحدث التأسيسي أو التكويني، وبين القراءات التي أسهمت في تعميق الفكر الأسطوري ورفعت النص – إلى مستوى التعالي والتقديس، فاختراق هذه المسافة الفاصلة ما بين مرحلة التكوين والجمع ضرورية من أجل معرفة حلقة الصراع المفقودة التي عاصرت عملية الجمع والتدوين والترتيب للمصحف، فهو لا يكتفي في دراسته بالنص المكتوب أو الرسمي، بل يجعل من الشفوي وغير الرسمي موضوعاً لدراسته، وهذا ما يطلق عليه بـ (المُقاربة النقدية للواقع) (مداقين، ٢٠١٠، ص ٢٢).

والمقاربة النقدية للواقع هي جزء من مشروعه الإسلاميات التطبيقية على التراث الإسلامي، وهذا ما لم يركز عليه الاستشراق والمستشرقين، وإنما اكتفوا بسرد الوقائع من دون أي بحث أو تحليل، وإنما الاكتفاء بما قاله المسلمون والفقهاء ونقلوها إلى اللغات الأجنبية، وهذه إحدى النواقص في منهجيتهم، وانطلق أركون من منهجيته المتعددة والمنفتحة على الحداثة والتجديد ليكمل نقص الاستشراق، ويعيد قراءة التراث الإسلامي، ولاسيّما النص المقدس (القرآن)، الذي يتميز بنصه الاستعاري والمجازي، إذ لا يمكن "اختزاله إلى معنى أُحادي الجانب، ولا يمكن سجنه في قوالب في ما بعد لتلبية حاجات المجتمع "(أباه٢٠١٠ص ١٤٤ص)، أي أن أركون يدعو إلى قراءة حرة ومفتوحة للنص القرآني على

الحداثة والعلوم الاجتماعية والإنسانية من أجل تهيئة تراث مستنير لا يتعارض مع الحداثة والأنوار.

الخاتمة: من هذا البحث، نستطيع إيجاز أهم ما توصلنا إليه من نتائج:

١. اهتمَّ المستشرقون بالتراث العربي وكان للنص المقدس (القرآن) من ضمن اهتماماتهم، إذ ترجموه إلى اللغات الأُخرى كما جمعوا كل شيء يخص علوم القرآن والتفسير حتى يتمكنوا من قراءته وفهمه، وكان لأركون موقف من دراسات المستشرقين للقرآن، إذ يرى أنه ظلَّ مجهولاً أو غير معروف على حقيقته، ولاسيّما أن ترجمة معاني القرآن ليست سهلة وأي خطأ في الترجمة يؤدي إلى تحريف ومغالطات وتناقضات.

٢. من أهم المسائل التي ركز عليها المستشرقون في دراستهم للقرآن (التسلسل الزمني للسور والآيات، وترتيب وتنظيم مجموع عبارات ونصوص الوحي بعد موت النبي)، في حين انشغل الفقهاء بالأولى وأهملوا الثانية وهذا ما ولّد بحسب أركون أرثوذكسيات إسلامية أو سياجات دوغمائية حجبت القراءة العلمية النقدية والتحليلية للنص (القرآن) ،وعدّت أية محاولة كفراً، في حين توجه المستشرقون لدراسات علمية للقرآن، لكن ناقصة أو مبتورة ،إذ اهتموا بالسياق اللغوي والمعطيات الإيمانية وبعضهم الآخر انشغل بما يخدم مصالحهم السياسية، ويرى أركون لا بُدَّ من دراسة لا تتوقَّف عند تفسير الآيات والترتيب الزمني وإنما لا بُدَّ من الاهتمام بالرهانات (اللغوية والتاريخية والتيولوجية والفلسفية) من أجل تقديم دراسة تحليلية علمية حداثية نقدية تتماشى مع العلوم المعاصرة ضمن مشروعه (الإسلاميَّات التطبيقية).

المصادر:

١. أباه، السيد ولد(٢٠١٠)، أعلام الفكر العربي (مدخل إلى خارطة الفكر العربي الراهنة)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١ .

٢. أركون، محمد (١٩٩٦)، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ت: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط٢.

٣. أركون، محمد(٢٠١٢)، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ت: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط٦.

٤. أركون، محمد(١٩٩٩)، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ت: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت – لبنان، ط٨.

٥. أركون، محمد(٢٠٠٠)، القرآن (من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني)، ت: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ط١.

٦. أركون، محمد(٢٠١٧)، قراءات في القرآن، ت: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت – لبنان، ط١.

٧. الإمام، أمين بابكر محمد الأمين ابن جرير (٢٠١٢)، الطبري وجهوده النحوية في (تفسير جامع البيان)، إشراف: يحيى علي محمد الفادني، (أطروحة دكتوراه)، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدراسات العليا، قسم الدراسات النحوية واللغوية.

٨. بدوي، عبد الرحمن(١٩٨٤)، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط١.

٩. بلاشير (١٩٧٤)، القرآن (نزواه، تدوينه، ترجمته وتأثيره)، نقله إلى العربية: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١.
١٠. الصغير، محمد حسين علي(٢٠٠٠)، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم (بين النظرية والتطبيق)، دار المؤرخ العربي، بيروت – لبنان، ط١.
١١. الطبري، محمد بن جرير (١٩٩٤)، تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.
١٢. عبد الله، رائد أمير شيت، خالد عبد الجبار (٢٠١٢)، الاستغراب (عند محمد أركون وموقفه من القرآن الكريم)، تقديم: عماد الدين خليل، منشورات مكتبة الميثاق، ط١.
١٣. عزوزي، حسن(٢٠٠٧)، آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، ضمن سلسلة تصحيح صورة الإسلام/ مطبعة آنفو– برانت، ط١.
١٤. مجموعة مؤلفين(٢٠٠٢)، الموسوعة القرآنية المتخصصة، الإعداد والتحرير: علي جمعة محمد، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.
١٥. مجموعة مؤلفين(٢٠١٩)، محمد أركون (دراسة النظريات ونقدها)، رؤية نقدية معاصرة، الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة، النجف، ط١.
١٦. مداقين، هشام(٢٠٠٩، ٢٠١٠)، المقاربة السيميائية في تحليل الخطاب القرآني عند محمد أركون، سورة الفاتحة نموذجاً، المشرف: عباس بن يحيى، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السيلة.
١٧. مصطفى، كيحل(٢٠١١)، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، ط١.
١٨. مليكة، سربير (٢٠١١،٢٠١٢)، ترجمة معاني القرآن الكريم عند دونيز ماسون (دراسة تطبيقية)، إشراف: بلحيا طاهر، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب واللغة والفنون، قسم الترجمة.
١٩. النحاس، أبو جعفر أحمد بن إسماعيل(١٩٩١)، الناسخ والمنسوخ، دراسة وتحقيق: سلمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم، مج١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.